أقصوصة من أميل مانن

حب فى روما[1]

للأستاذ دريني خشبة

يخطىء من يحسب أن الحب وقف على جماعة الأرستقراطيين من الناس، وخاصة الحب الرفيع السامى، الذى هو ينبوع آدميتنا والذى تبتعثه السماء فى قلوبنا ليصهرها بآلامه الحلوة، وأشجانه الجميلة؛ وليفجر منها دموع الرحمة والمودة والحنان ... وقد ينمو الحب فى كوخ من قش، كما ينمو فى قصر، وقد يكون فى الكوخ أصدق منه فى البيت ذى العماد، وقد يكون فى ركن منسى، أصفى منه فى جنة فيحاء ... وهكذا كان حب هذا الفتى ميشيل، الخادم الفقير فى أحد فنادق روما

لله ما أقسى المقادير! لقد كان ميشيل، الفتى الايطالى المرح، أحق بأن يكون شاعراً يودع روحه فى قصائد رنانة، ينشدها ويتغنى بها، لا خادماً ينضد الوسائد، ويُعنى بالسُّرر، ويَنْفض السجاجيد ... و ... ينظف أحذية النازلين !! وكانت له أم لولاها ما اضطر لأن يعمل كي يكفلها، إذ مات عنها زوجها فى السنوات الأولى من البناء بها ... وكان يؤوب إليها آخر كل نهار بحبه لها، وحرصه على إسعادها، ثم بليرات قليلة تشفى السغب، وتضمن السَّتْر، وتقيم أوَدَ الحياة ...

وكان ميشيل يحب الموسيقى، ويغرم بالقصص الايطالية، ويشغف بمآسى الحب، وكان يتمنى لو وفق إلى أن يكون واحداً من أولئك الأبطال الذين يملأون الروايات بالدموع والآهات، وإن لم يعيشوا مع ذلك إلا فى أدمغة مبتدعيهم من الكتاب والمؤلفين

وكانت تعمل معه فى الفندق فتاة لم تكن فى رأيه أول الأمر شيئاً مذكوراً، وإن يكن شعرها الذهبي يلفت نظره أحياناً، وساقاها الجميلتان اللتان لهما ظلال خفيفة من بنفسج الأبنين تثيران فى قلبه (استلطافاً) لم يفكر مرة فى أنه ينتج حباً أو يتأصل فيكون غراماً ... لا ... لم يفكر ميشيل مطلقاً فى أن هذه الفتاة البائسة مثله، ستكون حلمه وأمنيته، وأنه من أجلها سيقضى أطول لياليه مسهداً كما يقضى الشعراء لياليهم فى عوالم شاسعة من المنى والأحلام

وكان ميشيل ينقطع عن العمل نصف يوم عطلة فى كل أسبوع وكانت الفتاة ماريا، من أجل ذلك ترهق بالعمل، وكان يرهقها أكثر، وجودها مع نادل آخر شرس الطباع، لئيم الخلق، يدعى فراري ... كان يتعمد أن يترك لها كل عمل مجهد، على أن يستخف هو باليسير الأقل ... وكان فراري ينقطع عن العمل أمسية واحدة كل أسبوع كما ينقطع ميشيل، وطالما كان يختار أمسيته فى نفس اليوم الذي كان ينقطع فيه زميله، فكانت ماريا المسكينة توزع نفسها على جميع أنحاء الفندق، وكان يهو الطعام يتعبها أكثر من كل شئ، لاختلاف أمزجة الآكلين وكثرة طلباتهم، وضرورة مراعاة ترتيب النداءات، وإلا فالويل لماريا من هؤلاء (السياح) الانجليز المتغطرسين الذين يغشون هذا الفندق دائما

وقد لحظ ذلك ميشيل، فكان يتعمد أن يبقى فى أمسيته، دون أن يذهب لإجازته، ناسياً أن أمه العجوز الرؤوم المريضة المشفية على الموت، تنتظره ليسمر إليها، ويخفف عنها آلامها .. كان ميشيل ينسى هذا الواجب المقدس، ولكنه كان لا يلتفت إلى أن فى عمله هذا تقصيراً، بل بالعكس من ذلك، كان يرى فيه إنسانية سامية، وعطفاً تحتمه عليه رجولته، على هذه الفتاة ذات الشعر الذهبي والساقين اللتين لهما ظلال جميلة من بنفسج الأبنين ... ولم يفكر ميشيل مرة أنه فجر الحب ينبلج فى قلبه، وأنها أنفاس الغرام العطرية تجذبه كالفراش إلى هذه الزهرة الحلوة

(١) العنوان الأصلى ميشيل جلوريا

الغضة ... كلا ... بل لم يفكر قط فى أن أمه الرؤوم المريضة كانت أحوج إليه وإلى لحظات ينفقها عليها ، من هذه الفتاة اللعوب الطروب ذات الفم الدقيق ، ماريا التى تعمد ألا يغادر الفندق ليساعدها وليخفف عنها هـذا العبء الهائل ، من رفع الأطباق وجمع الأكواب ، وتنضيد البهو ، وتلميع الموائد ... حتى لا يهان هذا الشعر الذهبى المتدودن الذى يرف كأنفاس الحور على صدرها الناهد وظهرها العاجى ، وحتى لا ترهق الساقان الملفوفتان اللتان لهما هذا السحر الجميل المنعكس من بنفسج الأبنين ! !

ولم تشكره ماريا قط ، ولم تتعب تفكيرها فى السبب الذى كان يصرف زميلها عن التمتع بأجازته القصيرة ، وكانت كلما هممت بعمل شاق من أعمال البهو ، وأقبل هو مهرولا ليؤديه نيابة عنها أنفضت برأسها الذى يتخايث صغيراً في شفق الشعر الذهبى ، ومضت لطيتها ، تاركة لميشيل أن يقوم بكل عسير شاق من أعمال الصالة ... ووقفت تعبث بدمية أو بباقة من الزهر ، أو تصلح صورة أو تسقى أصيصاً ... وكان الفتى مع ذاك يخالسها نظرات كالودق يخرج من بين السحاب ، وكان مع ذاك أيضاً لا يشعر بتعب ولا ينالـه إعياء ... وكان يسعد سعادة لم يكن يعرفها كلما سمع صوت ماريا يرن فى فضاء البهو الكبير ، فيرن جرسه الفضى فى جوانحه ، ويوقظ فيها أمانيه التى كان يتصورها لياليه الخاليات ولا يظفر بتحقيقها

وأخيراً عرف أنه الحب ...

وكانت مفاجأة حلوة لروحه الصادية أن تروى أول ما تروى من هذه الكأس المترعة بفتاتن ماريا ذات الشعر الذهبى ، والساقين الملفوفتين فى بنفسج الأبنين ... وكانت مفاجأة حلوة كذلك أن تتبرج الدنيا القبيحة هكذا فتصبح جميلة سافرة بسامة ، بعد أن كانت عبوساً قطريراً معتمة حين كان قلبه لا يعرف الحب ... ويصبح كل ما حوله ضاحكاً يتأرج ويتبرج ويهتز كما تهتز الأعطاف بالبشر

ولكن ميشيل كان حيياً ... وكان كلما هم بمحادثة ماريا عما يجيش من حبها في قلبه ارتبك وانعقد لسانه ، والتوت الكلمات فكأنها من حديد لا يلين ، وخفق قلبـه وازلزل ، وهرب الدم من خديه ، فينصرف حزيناً محسوراً ... ولكن نظرة واحدة إلى شعر ماريا وساقيها كانت تعيد ابتهاجه ، وترد سوابه ، فيرضى بالصمت الذى لا يد له فى غيره ...

وظل حبه دفيناً فى قلبه يشفه ويضنيه ؛ وظل هو قانعاً راضياً بأن يكون فى جوار ماريا دائماً ... وفى ظلها الوارف أمسية من كل أسبوع ؛ يحمل عنها أوزارها ، ويقوم بكل ما يشق عليها أن تؤديه من مشاق

وكأنما لحظ الخبيث فراري ، الكهرباء التى تزلزل أركان ميشيل فأقسم ليكيدن له ؛ وكان فراري فتى لعاباً يجيد إلى درجة الخطورة إعمال عينيه وقسمات وجهه ، ويتقن زخرفة الكلمات التى تقع عليها قلوب العذارى كما يقع الفراش فى النيران ... وكان هو الآخر يرى فى ماريا غادة لم تخلق لهذا العناء ، وكان يزن جمالها بعقله لا بقلبه ... أى أنه كان يراها تصلح كزوجة نافعة تجلب اليسر والرخاء للرجل الذى يحظى بها ، لأنها لو عملت فى فندق آخر لحصلت على أضعاف ما تحصل عليه هنا ... ولم لا ؟ أليس لها هذا الشعر الذهبى الذى هو فى نفسه كنز ؟ أليس لها هذا الجسم الممشوق والقد المعتدل ، والخطى الراقصة التى تلفت الأنظار وتكهرب القلوب ؟ ! إذن ليتافس فراري زميـله ميشيل ... وليطلب من مديرة الفندق استبدال أمسيته التى يستريح فيها ليعمل مع ماريا حين يكون ميشيل فى إجازته ، وليظفر فراري بكل ما تصبو إليه نفسه ، وليتهم ميشيل ، وليلفق له التهم ، ولتصدق المديرة الحمقاء ما يُتهم به الفتى البائس الذى قضى عليه سوء طالعه أن يباشر هؤلاء اللئام وأن يأكل من أيديهم كفافه ، فى حين كان ينبغى أن يكون شاعراً أو أديباً يسمو بأدبه على الأدباء ... لا على خدم الفنادق ... مسكين ميشيل ! لقـد كدر عليه هذا الإبليس المقتدر الملفق صفو حبه الغض الذى بلذه بقدر ما يشقى به ... وأثاره ومزق قلبه ما رأى من العلائق بين مارى وبينه ، ما لم يستطع هو أن يظفر بشىء منه برغم كده وتضحيته وحرصه على التقرب من الفتاة والتودد إليها

وأخذت الدنيا تسمج مرة ثانية فى عين الفتى ، وتكتسى سربالاً أسود اللون قاتماً ... وعادت نفسه الأديبة الشاعرة تختلج بما تختلج به نفوس الشعراء البائسين ... وعاد يوماً إلى داره فوجد أمه تعالج سكرات الموت ... فلما رأته أشارت إلى صليبها وهى لا تقوى على حمله ، فأدناه من فمها فقبلته ، ونظرت إليه بعينين مغرورقتين ، ثم تمتمت بكلمات هى من غير شك دعاء له ؛ ثم لفظت آخر أنفاسها ... فذعر ميشيل وانخلع قلبه وطفق يبكى ويعول ، وينظم ألحانه فيسرها فى نفسه

ولما عاد إلى الفندق بعد ثلاثة أيام ، كان يحدث نفسه ـ إذ هو منطلق فى الطريق ـ أن ماريا لا بد عاطفة عليه ، معزيته أحسن العزاء وألطفه ، جالسة إليه تواسيه وتذهب عنه الحزن ... وكان يتصورها معه فى بهو المطعم تلاطفه وتظهر له الألم من أجل وفاة أمه ... وأنه مستطيع لا بد أن يظهرها على حبه ، وأن يعترف لها بمكنون قلبه ... وصمم على أن يكون جريئاً مقداماً هذه المرة وأن ينتهز الفرصة ليقهر هذا العذول : فراری ، وأن ينحيه عن فتاته مهما كلفه ذلك ، فإن لم تصخ له وتنصره عليه ، فلينصرف عن هذه الدنيا الخادعة ، وليلذ بأطراف الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، فلن يعدم لقيمات تسد مسغبته ، وقطرات من ماء تبل أواره ... وهكذا تداعت هواجسه ، وتسلسلت أفكاره ؛ وكان كلما تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فذهب به مذاهب شتى ... حتى إذا وصل إلى الفندق ، وتسلم عمله ، راح يتنسم ماريا ويتشمم عبيرها ، ولكنه ، وا أسفاه ، لم يجد عندها شيئاً !! إنها سراب بقيعة !! لقد ذهبت ماريا ... وذهب فراری ... وذهبا معاً فى يوم واحد ، وفى لحظة واحدة ، ولسبب لم تستطع مديرة الفندق أن تذكره ليشيل ، لأنها لم تستطع أن تعرفه !!

* * *

وضاقت عليه الأرض بما رحبت ؛ وكيف لا تضيق وقد فقد أمه وفقد هواه فى أسبوع واحد ؟ لقد فقد القلب الذى كان يعفو والقلب الذى كان لا يعرف ... فقد فى الأول المحبة والظل الوارف ، والتسامح والرضى ؛ وفقد فى الثانى هذا الأمل الذى حبب إليه الحياة ، وجعلها حلوة مشرقة بسامة ، لأنها تضم ماريا ... ماريا ذات الشعر الذهبي المفهفف ، والوجه المتألق المشرق ، والساقين ذاتى الظلال من بنفسج الأيتين ؟ أين ذهبت ماريا يا ترى ؟ أين ذهب بها الشيطان فراری إن كانت قد ولت معه ؟ ولماذا ذهبا معاً ؟ لقد كانت تضيق به ، وتشكو منه ، ولا تكاد تستنشق هواء يشركها فيه ؟ فأين ذهبا معاً ؟ ولم ذهبا هكذا من دون أن يعلم أحد ؟

وانطلق ميشيل يطوى الطريق السادرة النائمة فى ظلال البلوط والصنوبر ، المؤدية إلى ضاحية تيفولى ، وهو ينظر بعينين موجعتين محزونتين إلى هذه الشمس الرومانية الغاربة ، التى تتوهج كالجمرة الكبيرة فى هشيم الطبيعة ، وينظم فى أعماقه ألحانه ، ويستمع إلى خرير الجداول مختلطاً برنين الناقوس الكبير الذى يحيي بدقاته السماء ، ويسألها للناس الرحمة ... ولقد بدا له أن يعرج إلى هذا البيت المنيف من بيوت الله فيصلى له ، ويسجد ويخبت ، لعل روح ماريا تكون معه فتسجد هى الأخرى ، وترق له ، وتكفر عما أعرضت عنه ... بيد أنه مضى فى طريقه لا يلوى على شيء ، لأن هذه فكرة واحدة من آلاف الفكر التى كانت لا تفتأ تطيف برأسه وهو لا يعى

واشتد خبله ، وظمئت روحه إلى ماريا ظمأ شديدا ، وصار يلتمس لها المعاذير من هذا النكران الذى ما تعمدته ولا قصدت إليه لأنها لم تكن تدرى ما يضمره لها من هيام فى سويدائه ، وظل يهتف باسمها فى نومه كما يتغناه فى يقظته ، لكنه كان يتغنى به كما يتغنى الصوفى المجذوب أسراره ... وهو لا يدرى ما يقول !! وجلس مرة يقلب صحائف مجلة انجليزية فوقع بصره على صورة ماريا ... ماريا بعينها !؟ يا عجبا ! ومن أين لماريا هذا الصيت البعيد والذكر المنتشر ؟ إنها كانت مثله لا تعرف كلمة انجليزية واحدة ، وهذه مجلة للآداب والمسرح ، وليس معقولاً أيضاً أن تكون ماريا قد التحقت بالمسرح الانجليزي نجمة عظيمة من أنجمه ، وليس معقولاً أيضاً أن تكون قد أصبحت فى أيام معدودات أديبة واسعة الإلمام بأدب هذه اللغة الانجليزية التى كان يحسبها ميشيل ـ لصعوبتها فى نظره ـ من لغات الشياطين ! فما ماريا وهذه المجلة الانجليزية يا ترى ؟ ومالها هى وما للأدب الانجليزى والمسرح الانجليزى ؟ ! ونظر أسفل الصورة ليقرأ اسم صاحبتها ... ولشد ما كانت دهشته عظيمة هائلة إذ وجد اسم صاحبة الصورة (إيزابل هايس) T ! المؤلفة الكبيرة والقصصية البارعة ، التى طالما قرأ لها روائع وآيات مترجمة إلى لغته الايطالية ؟ !

لا بأس ... إنه لم يحصل مرة على صورة ماريا ، وها هى ذى صورة إيزابل لا تفترق عنها فى شيء ... فليحتفظ إذن بها ، وليجعلها بين شموع وضاءة تلتهب بالقبس المقدس الذى يتأجج ملء قلبه ... وليصل لها كل مساء وحين يصبح ... وليذكر فى فمها الرقيق الصغير تلك الأقحوانة التى كانت تنفرج عنها شفتا حبيبته ... ولتبارکه الصورة المستعارة بكلمات صامتة لا تبين ، فقد كانت ماريا لا تبين كذلك ... وليرَ هو فى وجهها الوضاء جمالاً جديداً كل يوم جديد ، وليعش على الأمانى يبهرجها لنفسه ، ولا بأس من أن يضع الصورة كلما نام تحرسه عند رأسه ... وبالاختصار ، لتكن حياته أحلاماً فى أحلام ...

غير أن الفندق صار شيئاً كريهاً لا يطاق ، لأن ماريا لم تعد

ترسل فى أجوائه أنفاسها ... بيد أنه مع ذلك جميل محبب لأن فى كل ركن من أركانه ذكرى لماريا تغذى أحلام ميشيل ، وترسل دموعه كلما جفت ؛ وهو مع ذلك أيضاً هيكل حبه الأول الذى استيقظ فيه قلبه من سبات العدم فخفق بنعمة الهوى ... لهذه المتناقضات سيقيم ميشيل فيه ... وليكن رئيس الخدم بعد شهر أو شهرين ، وليتضاعف راتبه ، وليشتر بجانب كبير منه كثيراً من قصص إزابل هايس التى لم يقرأها ، لأنه أصبح يرى فى آثار هذه الكاتبة الانجليزية روح ماريا :... وليحاول أن يتعلم الانجليزية ليقرأ المؤلفة فى لغتها ، وليفشل فى هذه المحاولة ، فقد أورى إحساساً شريفاً نحو صورة لسيدة تشبه ماريا ، وكفى بذلك برهاناً على وفائه لذكرى فتاة لم تعرف قط أنه يهواها ...

* * *

وأقبل فوج من (السياح) عظيم من أغنياء الانجليز فنزلوا فى هذا الفندق ، وأعجبوا بحديقته إعجاباً شديداً ، فقد كانت ظلال الأبنية البنفسجية تعكس على نضرتها وخضرتها ألواناً شعرية تصول فيها الأرواح وتجول

وحان موعد الغداء فانتشر النازلون فى بهو المطعم الوردى ، وجلسوا إلى موائدهم مسرورين فرحين ، وراح النُّدل بينهم وجاءوا ، هذا يحمل الأطباق الحافلة ، وذاك يحمل الماء الثلوج ، وثالث الكامخ الايطالى اللذيذ ... وأشرف ميشيل على الجميع بملابسه الناصعة ، ووجهه الحزين الباسم ، فطفق يأمر هذا ويشير إلى ذاك ، ويدعو هذه ويحث تلك ، والسياح مقبلون على آكالهم وأشربتهم آخذون فى سمر هامس ، وكلام رقيق ... شأن السادة الانجليز فى كل فج ...

ثم وقف ميشيل أمام حسناء إنجليزية فجأة ولم يرم !

ماله وقف هكذا كالتمثال وبداه مقبوضتان ! إنه لا يتبس ولا يتحرك ! بل سمر عينيه فى السيدة المشغولة عنه بطعامها وشرابها ، ولما يأبه للنداءات والأجراس التى تهتف به من كل صوب ! ... ودهش النازلون فجعلوا يحدجونه وإن لم يشتغلوا به عن طعامهم ثم استبطأته المديرة فانطلقت إليه كى ترى ... فلما وجدته يقف عن كثب قريباً من السيدة الانجليزية لكزته لكزة هينة لينة ، لكنه لم ينتبه ... فنظرت المديرة إلى السيدة السائحة نظرات سريعة فعرفت كل شىء

— أستسمحك عذراً يا سيدتى فهذا النادل ميشيل أديب مشغوف بك ، يقرأك ويكب على قراءتك ، وليست لك قصة أو درامة منقولة إلى الايطالية إلا وقد اقتناها ... والأعجب من كل ذلك أنه اقتنى صورتك من إحدى المجلات التى تكتبين فيها ، ووضعها فى إطار ثمين ، وأولاها من عنايته ما لم يول حياته الخاصة ! أندريا ! أندريا !

وأقبل الخادم أندريا فقالت له المديرة :

— انطلق إلى غرفة ميشيل فأحضر صورة السيدة إزابل هايس!

ونظرت السيدة الأديبة إلى صورتها فدهشت لاحتفاظ النادل الايطالى بها ، وشاع فيها برغم طبعها الانجليزى المعروف إحساس بالكبرياء والزهو ... حتى إذا فرغت من طعامها هتفت بميشيل وسمحت له بالجلوس إليها يكلمها وتكلمه .. وكانت تجيد الايطالية فكان الحديث بينهما جميلاً جذاباً ذا شجون ...

ومما سحر ميشيل أنه سمع من فم الأديبة الانجليزية صوت ماريا ، ورأى فوق رأسها سلوكا هفهافة من الذهب تشبه شعر حبيبته ، ووجد الجسم السمهرى الممشوق هو هو جسم صاحبته وقوامها .. ولم يكن باقياً إلا أن تكون الأديبة إيطالية .. ونادلة .. لتكون ماريا ...

وسكنت إزابل فى الطابق العلوى فى الغرفة الأخيرة من البهو الكبير ... واستدعت المديرة فأوصتها ألا يرتفع للخدم ضجيج ولا لغط لأنها اختارت هذه الغرفة لتخلو إلى نفسها فتكتب ما هو مطلوب منها من القصص ... وطمأنتها المديرة ... وذهبت

وأقبل فوج آخر من السياح ، فنهضت المديرة تدبر له الغرف اللازمة ... وكانت قريباً من غرفة إزابل غرفة تقوم للبهو مقام مخزن ... فاستدعت ميشيل وخادمة أخرى لتساعده فى نقل الصناديق والأمتعة المحفوظة بها ... ثم أمرتهما أن يلزما السكينة والصمت ، وألا يقطعا على النازلة فى الغرفة رقم ١٧ هدوءها ... « لأنها تكتب لك قصة رائعة يا ميشيل ! »

وامتثل الخادمان ، وأخذا يحملان ما بالغرفة ... ولم يبق إلا هذا الصندوق الثقيل الذى لا يعرفان ما ذا كان بداخله ... فلما أخرجاه من الغرفة ، وشرعا يحملانه فى البهو . انفلت من يد الخادمة فهوى إلى الأرض ، وانتثر ما بداخله من أطباق وزجاج ، فصار هشيماً ، وأحدث فى البهو صوتاً مزعجاً كأنما هوى الفندق كله وصار أنقاضاً على أنقاض ... وأقبلت المديرة ترغى وتزبد

وتصخب ، وتلعن وتسب ... وبرزت إيزابل كالمجنونة لأن كل أفكارها طارت كالحمام من برج رأسها ... — كما عبرت هي — واجتمع السياح والخدم يشهدون ويتسلون بدافع الفضول ... ثم التفتت المديرة إلى ميشيل ، وهي تنظر في الوقت نفسه إلى إيزابل وقالت له : « أما أنت أيها المشئوم فمفصول من عملك ، ولا حاجة للفندق بك ! »

وغضب الفتى وإن لم يتكلم ... وقبل أن يذهب لشأنه هتفت به الأديبة الانجليزية وواسته بكلمة ، ثم صافحته ، ودست في يده ورقة مالية كبيرة ... واعتذرت مع ذاك إليه ، لأنها كانت سبب ما لحق به من أذى ...

ولم يذهب ميشيل البائس ليأخذ متاعه ويمضي ... بل انطلق كالمجنون يذرع طرقات روما العتيدة ، حتى كان عند تخومها ... وهو ما يزال قابضاً على الورقة المالية ، ولا يدري ماهي ؟! ثم نظر في البطاح القريبة فرأى ضاحية تيفولى ببلوطها الرائع وحوورها الجميل ، وشجر السرو المعجب البارز في جنباتها ... فانطلق في طريقه إليها ... حتى إذا بلغها ، كان قد نال منه الجهد ، وأحس بتعب شديد ... ولم يكن ثمة مكان يستريح به إلا هذه الفنادق الهائلة التي تشتهر بها هذه الضاحية ... فلم يبال ... ودخل أول واحد منها ، ثم انحط على كرسي كبير عند مائدة ، وأسند رأسه وراح يحلم بماريا ... وبأيام ماريا ... ويسكب دموعاً حارة ...

له الله ! كم ألف فكرة طافت برأسه الثائر وقلبه المشبوب !!

ثم أقبلت نادلة فهمست به وهو في سكراته : ماذا يطلب ... بيد أنه كان غارقاً في هواجسه وأحلامه ، فلم ينظر إلى الفتاة ... ومدت هي يدها الصغيرة الليّنة توقظه ... أو تنبهه ... فرفع رأسه قليلاً ... لكنه أحس كأنما الدنيا تدور به ، وكأنما الأرض تسوخ تحت قدميه ... وصرخ يقول :

— ماريا ... أنت هنا ... ؟

وانهمرت دموع الفتى المسكين تغسل خديه الأشحبين ... وقالت ماريا تجيبه ، وكأنما حُلّت عقدة السحر ... « أجل ياميشيل أنا ... هنا ! فمن جاء بك ؟ »

— لقد طردوني يا ماريا ... فذهب قلبي يبحث عنك حتى اهتدى إليك ...

— شكراً للمقادير ياعزيزي ... ولكن ... أما تزال تحبني ؟

— وكيف عرفت يا ماريا ؟

— لقد كنت أحسبك تعبث بي ... وهذا ما جعلني أفر مع قراري غليظ الكبد ، وأتزوجه في نابلي ... نابلي ! آه لهذه البلدة المتوحشة !!

— أنتِ ؟ تزوجت من فراري ... ؟

— أجل ... ولكنه كان زواجاً منحوساً ... لقد عشت معه ثلاثة أشهر ، كانت نكداً كلها ... والحمد لله ... لقد قتل في شجار نشب بينه وبين عصبة من رعاع نابلي ، فأراحني الله منه ...

— إذن أنت خالصة الآن لي ؟!

— ... ؟ ...

— إذن هلمي ياماريا ... هلمي ...

— أهذه ورقتك ؟ ماذا ؟ ورقة مالية كبيرة ... بخمسين ليرة ؟ !

— لا ... إنها ليست لي ، ولكنها لسيدة انجليزية تصدقت بها علي ...

* * *

واستقالت ماريا من فورها ... وانطلقت مع ميشيل إلى روما ... وقوبلا في الفندق مقابلة ثائرة صخابة ... ولقيتها المديرة بالترحاب ، وبالغت في الاعتذار لميشيل ، لأنها علمت أنه لم يتسبب في تهشيم الصندوق ... ولكن الفتى ازور عنها ، وسأل الكاتب ظرفاً كبيراً من الورق وضع فيه الورقة المالية ... وصعد إلى الطابق العلوي فاستأذن على إيزابل هايس الأديبة الانجليزية فأذنت له ... ولم يجلس ، بل قدم إليها الظرف بما فيه ... وانطلق شاكراً

وحمل متاعه ... وصحبته ماريا إلى بيته القديم الذي لم يدخله منذ ماتت أمه ... وهناك ، طفق الحبيبان ينفضان غبار الموت والفقر والذكريات المشجية عن الأثاث القديم ... وكشف في صندوق أمه عن فضل قليل من المال كان حسْبه للعقد على ماريا ، ولحياة ثلاثة أشهر كانت كلها عسلاً ... وكتب خلالها قصته ... وباعها بمبلغ كبير من المال ...

وعاش في ظل ماريا ... من أنبغ الأدباء الايطاليين

« ملخصة »

رمزي منشية